﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ . . . وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ . . . .﴾ يطارده! أم جلّهم والباقون لا يستحقون العذاب؟ فلكل حكمه ولا تخيير!

إنهم جُلّهم وليس التخيير إلّا فيهم، فلم يقل «إما أن تعذبهم» وإنما ﴿تُعَذِّبَ﴾ يعني من يستحق العذاب منهم ﴿وَإِمَّآ أَن نَتَّخِذَ فِيهِمْ﴾ هم أنفسهم ﴿حُسْنًا﴾.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ . . .﴾ يعني استمرارية الظلم من قبل وحتى لقاء ذي القرنين دون أن يفيق فيؤمن[1] فلا مجال له إلّا عذابه ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ . . .﴾ آمن بعد كفره توبة عما سلف فحسنٌ، أم آمن من قبل واستمر في إيمانه فأحسن، ولكلٍّ حسب إيمانه وعمله الصالح عِدّةً وعُدةً ومُدةً ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أحسن مما آمن وعمل صالحاً فضلاً من ربك عطاءًا حساباً!.

والتخيير بين التعذيب واتخاذ الحسن ليس إلّا في فيمن آمن بعد ظلمه، وقد يشمل المستمر على كفره في فرض بعيد، اللّهم إلّا في غير الواجب قتله جوازاً في قتله والسماح عنه، تخيراً عاقلاً عادلاً دون فوضى وكما في المحاربين والمفسدين في الأرض: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ . . .﴾ فالتخير هناك كالتخير هنا راجع إلى ما يختاره الحاكم الشرعي وفق مختلف الموازين في مختلف المجرمين دون أن يكون أعمى وفوضى أن يجزى أقل الساعين في الأرض فساداً قتلاً، ثم ينفى أشد المحاربين حبساً!

المعذب هنا يعذب حسب مرسوم الشرعة الإلٰهية بيِّناً وعرفاً: ﴿فَسَوْفَ

(١) نور الثقلين ٣: ٢٩٨ ج ٢١٥ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أما من ظلم» ولم يؤمن أقول: يعني لم يؤمن عند ذي القرنين بعد كفره قبله، ولم يقل: وأما الظالم لكيلا يشمل الذي ظلم سابقاً ثم تاب عن ظلمه فآمن.

﴿نُعَذِّبُهُۥ﴾ ومن ثم نُكراً: غير معروف ولا منتظر هنا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ حيث ظلم دون إفاقة بعد الذكرى ورؤية البأس، وأما التائب عند رؤية البأس فقد لا يُعذب هنا إذا كانت توبة صادقة أو تُحتمل، ثم أمره إلى ربه!

فالظرف هنا للظالمين الجُلِّ بمختلف ظلمهم، وتوبتهم وعدم توبتهم، هو يقتضي تخيّر الحاكم فيهم كما اختار ذو القرنين وما أحسنه، وحسب مرسوم الشرعة العادلة والفاضلة الإلهية: إعلاناً في هذه الإذاعة القرآنية أن للظالمين المعتدين عذابهم عاجلاً، وآجلاً يزيد نكراً، ولغير المعتدين منهم إمهال دون إعجال رجاء الرجوع إلى عدلهم، وللتائبين الآئبين قول يُسر دون عُسر ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ دون تعذيب ولا تأنيب في قولة لاذعة، فالإسلام يُجبُّ ما قبله! وإنما قول يُسر حيث تاب عما سلف: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ثم قولٌ يسرٌ فيما يتوجب عليه تداركاً لما قد سلف، والأمر في ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ شرعيٌ للحاكم المتمكن، إشارة إلى أنني لست ممن يتذرع الحكم للقول العسر والتكليف العسر، وإنما يسرٌ في يسرٍ.

ثم مقابلة ﴿مَن ظَلَمَ﴾ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1] يوسع نطاق الظلم إلى كفر عقائدي وعملي لازماً أو متعدياً، وإلى فسق عملي لمن آمن على مراتبهما بأحكامهما الجزائية.

وما هو ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ للذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ أنه جزاء أحسن مما عمل ومما يجزى في الحياة الدنيا، فهناك تصريحة بعذاب الدنيا لمن ظلم «فنعذبه» لأنه ثابت حكماً على أية حال وعملاً لمن مُكن في الأرض، وهنا تلميحة للجزاء الحسن وتصريحة بالأحسن حيث الثواب يوم الدنيا غير ثابت ولا موعود إلّا أحياناً!

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

ولماذا ﴿جَزَآءً﴾ منصوباً لأن الحسنى مبتدأٌ لـ ﴿لَهُ﴾ وقدم الخبر للحصر «له لا لسواه»: فله الحسنى جزاءً، وَالنصب على التمييز، دون حاجة إلى تكلفات أدبية أخرى لا يرضاها أدب القرآن!: فله - فقط - من حيث الجزاء المثوبة الحسنى أحسن مما قدم ويستحقه في الحياة الدنيا(١).

وهذه طريقة مثلى ومعاملة حسنة مع فريقي الظلم والإيمان، تخيراً للحاكم المبسوط اليد بالتي هي أحسن في ﴿أَمَّا . . . وَأَمَّا﴾ دون تخير فوضى وأعمى، وإنما عدل صارمٌ عقاباً لزاماً، وفضل كارم ثواباً كراماً!

إنه ليس الحكم والسلطة الإلٰهية ظلماً وزوراً وغروراً ما وجدتَ لها سبيلاً، وإنما هي رحمة على المجموعة وقضيتها القضاء على المعتدين، فإمهالهم اعتداءٌ على المظلومين، فهي رحمة ما وجدت لها سبيلاً وحتى للذين ظلموا إذا كان السماح عنهم لا يضر بالمجموعة وإن لم تنفعهم توبة، فضلاً عمن يفيق ويتوب، دستور إصلاحي بكل معانيه، يتبنى الصلاح بكل مبانيه!

نرى القمة الرفيعة من هذا الدستور في الشرعة الإسلامية، وتدلنا سيرة الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول ﷺ على مدى هذه الأخلاق الفاضلة ومن نماذجها ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾(٢) فقد يُدفع السيّىء بالسماح، أم إذا لزم الأمر لدفع ظلمه بتأديب وتأنيب كما يصلحه أو يحجز عن ظلمه، وأخيراً كآخر الدواء الكي، القتل، إذا كانت حياته على أية حال ظلماً على المجموعة، فكل ذلك الدفع ليس إلّا بالتي هي أحسن، وكصورة أولى ﴿. . . فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾(٣)!.

إن التعذيب في ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ يشمل مراتب النكال هنا اعتداءً بالمثل

(١) فالحسنى وصف لمقدر المثوبة وجزاء تمييز عن سائر ما له في الأخرى، وتقديم جزاءً لإفادة تهيّىء أكثر من العادة، وما أحسنه لفظاً ومعنى!
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

أو دون ذلك، من ضرب إلى قتل وبينهما متوسطات، وكما أن حسن الجزاء وحسناه في الأولى والأخرى له درجات حسب الدرجات ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[١].

وبصيغة أخرى إن تحقيق ذلك التخيّر في مراتب التعذيب وحسن الجزاء هو يمثل ﴿وَإِمَّآ أَن نَّتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ فإن تعذيب الظالمين إحسان بالمجموعة وحتى بالنسبة للظالمين رجاء رجوعهم أم - لأقل تقدير - تقليلاً لظلمهم. فلو ظلوا طويلاً لأضلوا وظلموا كثيراً!

كما ومن اتخاذ الحسن فيهم إرشادهم عن غيّهم ومساعدتهم عن عيّهم ولكي يجيدوا الإيمان وعمل الصالحات ويحيدوا عن الطالحات.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾:

خطوة ثانية في مثلث الرحلة كأنها أطولها فإنها من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق طوال اليابسة الأرضية مهما كانت بينهما بحار وأنهار!

و﴿ثُمَّ﴾ هنا تلمح للتراخي بين وصوله إلى أقصى المغرب ومغادرته عنها، وهذه طبيعة الحال في سفرة إصلاحية كهذه، وفي قوم لم تسبق لهم سابقة إصلاح كهذه السابغة اللائقة، هذا وإن كنا لا ندري زمن ذلك المكوث اللّهم إلّا لمحة ثمة من ﴿ثُمَّ﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وتنكير ﴿سَبَبًا﴾ يدلنا أنه غير السبب الأوّل شخصاً، مهما كان من جنسه أمّاذا؟ فلا يهمنا شخص السبب ولا جنسه ونوعه، وإنما ﴿سَبَبًا﴾ إلّهياً لم يحصل إلّا بما آتاه الله.

اتبعه لحوقاً سريعاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ مطلعها من أقصى الآفاق

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

الشرقية في عين الرائي، وكما في مغربها لأقصاه، في يابسة المعمورة بجانب البحر المحيط، فما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها دون اختلاف بينهما إلا فارق المغرب عن المشرق وعين حمئة.

﴿. . . وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ لا ستراً خلقياً من مرتفعات غابات وجبال وأشجار وأتلال، ولا ستراً مصطنعاً من بيوت[١] أو خيام أمّاذا فتنكير ﴿سِتْرًا﴾ يستغرق نفي الستر أياً كان وحتى الملابس[٢] فإنها سترٌ عن الحر والقرّ! ومهما كان جعله إلّهياً دون وسيط من سكان الشرق الأقصى حينذاك، كالأوّل، أم بوسيط كالثاني، فهما على أية حال راجعان إلى الله!.

إذاً فهم قوم بدائيون ومن أبداهم، كانوا يسكنون في أرض مستوية مكشوفة لا تظلهم إلّا شمسهم ولا تقلهم إلّا أرضهم، دون أي ظِلٍّ أو قِلٍّ سواهما! فـ «قد أحرقتهم الشمس وغيرت أجسادهم وألوانهم حتى صيرتهم كالظلمة»[٣].

فهل كانوا كلهم مؤمنين؟ وهو في العادة مستحيل ولهذه البداءة القاحلة البعيدة عن الدعوات الإلّهية أم وسواها! ثم ولماذا لم يحدِّث لنا بحديثهم البارع أو حديثه لهم!

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٠٧ ج٢٢٢ في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزوجل: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَٰلِكَ﴾ [الكهف: ٩٠-٩١] قال: لم يعلموا صنعة البيوت.

وفي الدر المنثور ٤: ٢٤٩ - اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن جريح في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ الآية قال: حدثت عن الحسن عن سمرة بن جندب قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أنها لم يبن فيها بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى نزول الشمس أقول: وقد لا يلائم هذا الحديث استغراق النفي في «ستراً» حيث الأسراب ستر كما البيوت.

(٢) المصدر في تفسير القمي في الآية قال: «لم يعلموا صنعة الثياب» أقول: تشمل الخيام.

(٣) من حديث الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام.

أم كانوا كلهم فاسقين؟ فأحرى بهذا المصلح إصلاحاً لهم أو تعذيباً ولم يلمح هنا بشيءٍ في هذا البين.

أم كالقوم الأول: منهم مؤمنون ومنهم دون ذلك؟ فلماذا لم يكرر لهم ما حصل لهؤلاء ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾[١]!

وإذا هم خارجون عن هذا المثلث من المكلفين فمن هم إذاً؟ ولماذا يتحمل هذا المصلح العالمي الكبير هذه السفرة البعيدة المدى، وهي أبعد من الأولى والأخرى، دون إنتاج له ولهم؟!.

يبدو كما تلمّحناه أنهم من أبدى البدائيين، كانوا ضُلّالاً غير عارفين، لا مؤمنين ولا فاسقين، ومهما كانوا هم من المكلفين، فهم ممن لا يهتدون سبيلاً، منقطعين عن وحي الرسالات أم بلهاء لا يعرفونها، إذاً فهم مُرجَون لأمر الله في مختلف الدرجات تكليفاً وجزاءً: ١ - ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[٢]. ٢ - ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ...﴾[٣]. ٣ - ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ...﴾[٤]، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ .... فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥] فهؤلاء الثلاث من قمة الإيمان ودرك الكفر والمتوسط بينهما، له ما أصلح وعليه ما أطلح، ومن ثم رابع ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٦].

وقد يكون القوم في أقصى المشرق حينذاك من أبدى البدائيين من ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ فليس لذي القرنين كثير شغل معهم مهما أرشدهم كما

(١) سورة النجم، الآية: ٢٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠، والكهف: ١٠٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠١.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.
(٦) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

يسطعون، كما قد يلمح له ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ وكما يلمح لغاية أخرى من هذه السفرة أن يحيط خبراً بأدنى المكلفين في المعمورة.

﴿أَحَطْنَا﴾ هنا تضرب إلى أعماق الماضي لحد الحال والاستقبال في ذي القرنين على أية حال، ولكن الخبر المحاط لربنا قد يخبرنا به وقد يسكت عنه دون ضِنَّةٍ، وإنما بحكمة كما هنا، وعلّنا نستعمل نحن ما لدينا من طاقات واستنباطات كالذي قلنا.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ... ﴿٩٤﴾﴾:

خطوة ثالثة هي الأخيرة من هذه الرحلة العالمية، يُتبع فيها سبباً ثالثاً نقول فيه مثل الذي قلناه في الثانية، فهي غير الأولى والثانية، وعلّه من نوعه لمكان التنكير ﴿سَبَبًا﴾:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ قَوْلًا﴾ سفرة بسببه من أقصى المشرق إلى ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ فأين هو؟ لحد الآن لا ندريه! وأما من هم ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؟ وإذا لا يفقهون فكيف ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ...﴾؟!

نحن لا نعرفهم ولا مكانهم إلّا ما عرّفه القرآن أنه ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهو طبعاً بين أقصى الشرق والغرب شمالاً أو جنوباً أمّاذا؟ فإنه قطعاً - ليس مشرق الشمس أو مغربها حيث بلغهما قبل هذه.

ثم ﴿ٱلسَّدَّيْنِ﴾ هما ما يسدان ويحجزان، أهما صناعيان؟ وإنما الصناعي لغرض صد الماء دفعاً لضره أو انتفاعاً من جمعه! والفتحة ناقضة لهذا القصد، أو صد الهجمات عمن وراء السدين؟ وهذان السدان لم يكونا صدين لأيِّ هاجم، حيث الفتحة بينهما ممرٌّ لكل مارٍّ، وقد طلبوا إليه أن يجعل بينهم وبين المفسدين سداً! ثم وهم على سذاجتهم لحد لا يكادون يفقهون قولاً لم يكونوا ليفقهوا صناعة سدّ وقد فقهها المهندسون في دور التقدم والرقي، ثم وَلَم يكملوا الصد في السدين طمّاً للفتحة بينهما؟!

إذاً فهما حاجزان طبيعيان لا يُظهر عليهما ولا يُنقبان «فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً» وإن كان يختص هنا بالردم، ولكن السدين إن لم يكونا في هذا الاختصاص كالردم، كان جعل الردم دون فائدة!

إذاً فهما جبلان[١] صلبان شاهقان، لا ينقصهما حجزاً عن الهاجمين إلّا ردمٌ بينهما وقد طلبوه إليه! وقد يلمح لذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾[٢]: الجانبين الصلبين.

و﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لا يعني إلّا النفي المعمّق لفقه القول، لا نفي القول، فرب قائل لا يفقه ما يقال له ولكنه يفقه ما يقول! أو يكاد يفقه قولاً.

ثم ﴿قَوْلًا﴾ قد يعني معنًى صالحاً من قوله، لا لغة، فإنهم - لأقل تقدير - يفقهون لغتهم وقد تكلموا بها ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ..﴾ ولا يرجى من أهل كلِّ لغة إلا تفهم لغته دون اللغات الأخرى.

فعلّهم كانوا في بساطتهم وسذاجتهم لحدٍّ لا يفقهون قول أي قائلٍ سواهم اللَّهم إلّا من هو في مستواهم، وذو القرنين كان يتحدث مع أهل كل لغة بلغتهم بسبب إلٰهي آتاه الله من كل شيء ومنه شيءٌ اللغة، ولكنهم ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فقد لا يفقه الإنسان قولاً ولكنه يُفَقَّه لاستعداده أن يفقه بمحاولة، وقد لا يستعد التفقه ولكنه يكاد أن يستعد فيفقه، ولكن هؤلاء كانوا في البساطة وخفة الفهم لحد ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أيّاً كان هذا القول إلّا ممن هو في مستواهم، ويردد عليهم مفاهيمهم دون أن يخطوها إلى سواها، وذو القرنين يريد ليحدثهم بلغتهم وبكل بساطة، إلّا أنهم ﴿لَّا يَكَادُونَ﴾ حيث الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، وهم غيّبٌ عن تفهم أي غائب فـ ﴿قَوْلًا﴾ يعني قولاً يحتاج إلى تأمل وتفقه.

---

(١) في حديث الأصبغ عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الكهف: ٩٤] خلف هذين الجبلين وهم يفسدون في الأرض.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٩٦.

هنا ييأس هذا المصلح العالمي أن يفيدهم فقهاً ويزيدهم علماً، فهل يذرهم بعد وعثاء السفر دونما إفادة؟ كلا - إنه أصغى إليهم ما هي متطلباتهم فـ ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ...﴾! فهم مهما لا يفقهون قولاً فقد يفقهون الخطر الحادق عليهم ليل نهار من ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ فلما رأوه صالحاً قوياً مصلحاً تطلّبوا إليه صد المفسدين أن يجعل سداً.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾:

إنهم على بساطتهم يرون فيه فاتحاً عدلاً قوياً صارماً يتوسمون فيه الصلاح والإصلاح وهم مستضعفون تحت وطأة الإفساد الدائب من وراء السدين من ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ حيث كانوا يهاجمونهم من وراء السدين فيعيثون في أرضهم فساداً وهم ضعاف عن مقابلتهم، إفساداً في النسل والزرع[1] أمّاذا؟

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾؟ ذات دلالتين على التماسهم منه ١ - ﴿أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾. ٢ - هل تجعل سداً - وإذاً فهل نجعل لك خرجاً: أجراً نُخرجه عما تُخرجه من مال أو قوة؟ دون زيادة عنهما، والأجر أعم من الخرج، فقد يتأجر أكثر مما يُخرج اعتباراً بلباقة الرأي ولياقة صاحب الرأي، وهو عدل ما لم يُجحِف، أو يسوي بين خرجه وأجره وهو فضل إذ لم يأخذ على تخصصه شيئاً، أم لا يأخذ خرجاً وإنما يساعد طالب العمل العاجز بنفسه فيه، يساعده في طلبه، وهو فضل حيث اشتغل دون عوض، وتفضل على صاحب العمل حيث استعمله كما يسطع دون بطالة، وهكذا يفعل ذو القرنين، كأفضل ما يمكن أن يقدِّمه مصلح قوي حكيم لمستضعفين

(١) في حديث الأصبغ عن أمير المؤمنين عليه السلام... «إذا كان إبان زروعنا وثمارنا خرجوا علينا من هذين السدين فرعوا من ثمارنا وزروعنا حتى لا يبقون منها شيئاً...».

مظلومين، يتعاون معهم في صالحهم، دون أن يأخذ أجراً أو خرجاً إلّا أن يستعملهم لما يطلبون إعانة بقوة ومال هما خرج للردم ودون أن يكون له شيء إلّا أجر من ربه.

فذو القرنين يبلغ بين السدين، ويُطلب منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، أن يصد بين السدين تخلصاً لهم عن إفسادهم في أرضهم، مما يبين كونهم مستضعفين وغير ظالمين، وإلّا تطلبوا إليه صد الإفساد فيما بينهم كما بينهم وبين المفسدين وراء السدين، وبطبيعة الحال هؤلاء البله الذين لا يكادون يفقهون قولاً لا يستطيعون الإفساد، أم إذا استطاعوه لم يكونوا ليفسدوا فيما بينهم، يدل على كل ذلك تطلبّهم إلى هذا المصلح العظيم أن يجعل سداً هو صدٌّ عن الإفساد في أرضهم!

من هذه الدعوة على بساطتها ومن تلكم الإجابة الخارقة في ذلك التعاون الصارم ندرس مدى وجوب صد الإفساد من أي كان وأياً كان وأيان! تكريساً لكافة الطاقات البشرية مع التوصل بإمدادات إلهية، خروجاً عن الإستضعاف وعيث الفساد، دون أي مبرر لأية جماعة مستضعفة في تصابرهم على الفساد وتخاذلهم أمام المفسدين، فصداً صداً أو سداً سداً! بعدما كلت كلّ المحاولات للقضاء على المفسدين أو على فسادهم أم الهجرة عنهم أمّاذا؟ فلا يتبرّر المستضعف تحت نير الإفساد من المستكبرين قوله: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[١] حيث يقال لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ . . .﴾[٢] . . . اللهم ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[٣] فما دام هنا سبيل إلى التخلص أي سبيل، كائناً أو متمكناً، فلا يُعذر المستضعف، وحتى إذا لم

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٨